

أزمة القيم في المنظومة التربوية في العالم الإسلامي

د. حميدة بن زبطة

جامعة ادرار

إن الحديث عن أزمة القيم يقتضي الوقوف على بعض المعطيات الأساسية المرتبطة بالتربية والأخلاق ومدى ارتباطهما بالفلسفة التي يقرها المجتمع لتحقيق التنمية الهادفة إلى تجسيد المنهج الذي يسهم في بناء المجتمع المؤسس على قيم تحدد إطار الناشئة الاجتماعية المستهدفة. ولاشك أن القيم المعتمدة في أي مجتمع يكون تجسيدها من أولى الأولويات وتأتي القيم الأخلاقية في أعلى الدرجات باعتبارها صمام الأمان في ضبط سلوكيات الأفراد وبيان حدود علاقتها حتى مع خالقها. وإذا حدث وظهر أن هناك اختلالات في مردود المنظومة التربوية فالسبب يرجع أساسا إلى ما قد يكون أصاب القيم المعتمدة فأبرز أزمة القيم. هذا ما سأحاول توضيحه في هذه المقالة.



la crise des valeurs dans le système éducatif dans le monde islamique

Les débats soulevés sur la crise des valeurs sociales nécessitent l'observation de quelques indicateurs fondamentales liés à l'éducation et aux mœurs, ainsi que ses rapports à la pensée édictée par la société, dans le souci d'aboutir au développement qui a pour but de réaliser le chemin contribuant à la construction de société, basée sur les valeurs déterminant le cadre de socialisation envisagées.

Bien que la concrétisation de ces valeurs adoptées demeure parmi les priorités dominantes, les valeurs morales

arrivent dans les premiers rangs, en leurs considérant en tant que soupape de sécurité, a pour vocation de réguler les comportements individuelles et de montrer ses limites. Et si en tout état de cause, quelques dysfonctionnements ont été apparus, cela reviendrait à la crise de valeurs émergentes.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادي إلى الصواب والصلاة والسلام على من أتاه الله الحكمة
وفصل الخطاب.

إن الحمد لله نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله لا مضل له ومن يضل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدي بهديه إلى يوم الدين. أما بعد :

إن الحديث عن أزمة القيم يقتضي التمهيد إليه بالإشارة إلى بعض المعطيات الأساسية كمعطى التربية ومعطى الأخلاق وما يدور في فلكهما باعتبار أن التربية أداة فعالة في ضمان سيرورة البناء الإنساني المنشود والقاعدة الأساسية للتكوين الاجتماعي ورفي المجتمع وتطويره وفق الفلسفة التي تضعها الدول التي تروم تحقيق التنمية الهادفة إلى تجسيد المناهج الدراسية وربطها بواقع مجتمعها تنزيلا ومدارسة بغية الوصول بالمتعلمين إلى الإسهام في بناء مجتمعهم المستقبلي بدل الوقوف أمام تطوره حجر عثرة.

وإذا كانت الأسرة هي المحضن الأول للإسهام في تنشئة الفرد، فإن المدرسة في الواقع هي الفضاء التربوي والتعليمي الذي يمرن المتعلمين على تلقي المهارات والمعارف وترسيخ الأخلاق الحميدة التي تصون سلوكياتهم.

ولعل هذا ما جعل المرابي والفيلسوف الأمريكي "جون ديوي" يصف المدرسة بأنها الحياة أو النمو، وأن عملية التربية والتعليم ليست إعداد المستقبل كما يرى كثير من المرابين بل هي عملية الحياة نفسها¹.

والتربية كما هو معلوم عملية اجتماعية يضعها ويسهر عليها المجتمع الذي يحتضنها. وهذا ما جعلها تختلف من مجتمع لآخر لاختلاف الثقافات والقيم والقوى المؤثرة في كل مجتمع واعتماد ما يرتضيه لنفسه. وهذا ما يجعلها وفي جميع الأحوال تعكس الفلسفة التي يقرها المجتمع. فهي تشتق أهدافها من أهدافه وتشكل نفسها حسب مقتضيات فلسفته وتحدد خطواتها العملية لبلوغ تلك الأهداف وذلك التشكيل².

ولا شك أن القيم المعتمدة في أي مجتمع يكون تجسيدها من أولى الأولويات وتأتي القيم الأخلاقية -وهي المعنية بالدراسة- في أعلى الدرجات باعتبارها صمام الأمان في ضبط سلوكيات الأفراد وبيان حدود علاقاتهم حتى مع خالقهم. وإذا حدث وظهر أن هناك إخلالا في المنظومة التربوية بين عملها ومردودها فالسبب يرجع أساسا إلى ما قد يكون قد أصاب القيم المعتمدة فأفرز أزمة القيم. وهذا ما سأحاول توضيحه بتفصيل أكثر في الفقرات الآتية.

أولا: تحديد بعض المفاهيم

وقبل الخوض في هذا التفصيل أرى أنه من الضروري الوقوف برهة لتوضيح بعض المفاهيم.

وليس الغرض من تحديد بعض المفاهيم الواردة في هذه المقالة الادعاء بصعوبة مدلولاتها لدى السامع أو القارئ، إنما الغرض هو محاولة وضعها في إطار محدد ييسر فهم مقصد استعمالها ليكون هناك هامش من التفاهم المسبق بين الملقى والمتلقي يجعل الإرسال والاستقبال يمر بسلاسة وعلى وتيرة واحدة دون حاجة إلى تدليل صعوبات محتملة.

وليكن تعريفنا لهذه المصطلحات على السياق الآتي :

أ- المنظومة :

أصلها من نظم وجمعها منظومات. والمنظومة هي الوعاء التنظيمي الذي تتجسد فيه الإجراءات العملية للفعل التربوي.

فتشمل باختصاصها النصوص المنظمة وأفراد الحقل التربوي معلمين ومتعلمين ومسيرين.

والمنظومة التربوية بجميع مكوناتها تشكل القاطرة الأولى للتنمية المجتمعية الشاملة والمستدامة ومن ثمة أخذت هذه الأهمية في بيان حدها.

ب- التربية :

أصلها من ربى، يربي، يقال فلان ربي ابنه أي نماه وغذاه ونشأه لأنها في اللغة تنمية وتنشئة وتغذية.

وتشمل التربية تنمية القوى الجسدية والعقلية والخلقية³.

وإذا كان العلماء يكادون يتفقون على تعريف التربية لغة فإنهم يختلفون كثيرا في مفهومها الاصطلاحي. ومرد ذلك الاختلاف يرجع إلى اختلاف ثقافات المجتمعات واختلاف الأهداف التي تحدد لها في كل مجتمع.

كما يختلف معناها الاصطلاحي باختلاف مبادئ الدراسات النفسية والاجتماعية والحضارية في نظرتها للفرد والمجتمع.

فقد نفهم التربية على أنها التعليم ولكن ذلك تعريف قاصر باعتبارها أكثر من التعليم ولأنها الوسيلة التي يحدث من خلالها التغيير في السلوك.

وإذا عُرفت على أنها نقل التراث فلا يحقق هذا التعريف دورها الأساس والفعال في إثراء الخبرة للوصول إلى تطوير وتنمية النظم الاجتماعية المرغوب فيها.

ولعل التعريف الشامل الذي يمكنه أن يتضمن هذه الغايات هو ما ذهب إليه الدكتور علي خليل مصطفى حيث قال: « التربية هي تلك العملية المقصودة أو غير المقصودة التي اصطنعها المجتمع لتنشئة الأجيال وبطريقة تسمح بتنمية طاقاتهم

وإمكانياتهم إلى أقصى درجة ممكنة ضمن إطار ثقافي معين قوامه المناهج والاتجاهات والأفكار والنظم التي يحددها المجتمع الذي تنشأ فيه»⁴.

ج- الأزمة :

الأزمة والأزمة جمعها إزم وأزم وأزمات وأوازم .
والأزمة هي الشدة والضيق يقال تأزم الأمر إذا اشتد وضاق وتأزمت الحالة السياسية في البلاد اشتدت وضافت وتأزم القوم أصابتهم أزمة.
وقد تأتي بمعنى القحط فيقال أصابت القوم سنة أزمتهم أزما أي استأصلتهم.
وأزم الدهر يأزم أزماً أي اشتد وقل خيره⁵.

د- القيم :

إن الباحث في مفهوم لفظ "قوم" من خلال القرآن الكريم ومظان علماء البيان يقف على استعمالات متعددة واصطلاحات متنوعة مشتقة من هذا اللفظ كالقيم والقيوم والاستقامة والقائم وغيرها.
وينتج عن ذلك أن مصطلح القيم لا ينفك عن محيط هذه المعارف المتكاملة وعليه تدور التعريفات المتعددة لهذا اللفظ.
فالقيمة واحدة القيم عند الجوهري وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء .
يقال: قومت الشيء فهو قويم أي مستقيم⁶.
وفي المصباح المنير : القيمة الثمن الذي يقاوم به الشيء بمعنى يقوم مقامه، والجمع قيم فيقال قومت المتاع جعلت له قيمة معلومة⁷.
وفي المعجم العربي ورد لفظ قيم بمعنى مستقيم يقال أمر قيم، وكقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيمة﴾⁸ بمعنى مستقيمة ومستوية⁹.
وجاء في مفردات ألفاظ القرآن : أن الاستقامة تقال في الطريق الذي على خط مستو. والإنسان المستقيم هو الذي يلزم المنهج المستقيم¹⁰.
وجاء لفظ الاستقامة والمستقيم في القرآن الكريم بمعنى الهداية كما أشار إلى ذلك ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾¹¹ فقال: «أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن»¹².

وقال أيضا في تفسير قوله تعالى: ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾¹³، أي على طريق واضح بين. والمؤمن يكون في نفسه مستقيما وطريقه مستقيما¹⁴.

وإذا كان لفظ التقويم تتبادر منه معاني تبين قيمة الشيء فقد ورد في القرآن ما يفيد حسن الصورة والهيئة وهذا ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾¹⁵ فقال إن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وبشكل منتصب القامة سوي الأعضاء وحسنها¹⁶.

ومن التعريفات الاصطلاحية للقيم نذكر ما ذهب إليه الدكتور ماجد عرسان الكيلاني حيث قال: «القيم محطات ومقاييس يحكم بها على الأفكار والأشخاص والأشياء والأعمال والموضوعات والمواقف الفردية والجماعية من حيث حسنها وقيمتها أو من حيث سوءها وعدم قيمتها وكراهيتها أو في منزلة معينة بين هذين الحدين»¹⁷. ورغم ما كتب في هذه المعاني المسندة إلى مرجعية واحدة فإن الأمر يظل صعبا للاتفاق حول مفهوم القيم وذلك بسبب تنوع الخلفيات والمرجعيات المنطلقة منها (فلسفية، دينية، اقتصادية، اجتماعية، سياسية... الخ).

وما يهمنا هنا أكثر هو مفهوم القيم في الحقل التربوي الذي تفسر فيه بأنها مجموعة المعايير الموجهة لسلوك الإنسان ودوافعه في تناسق أو تضارب مع الأهداف والمثل العليا التي تستند إليها علاقات المجتمع وأنشطته¹⁸.

ثانيا: أسباب أزمة القيم

يعرف العالم المعاصر ومنذ مدة غير قصيرة تدافعا بين التيارات الفكرية الداعية إلى علمنة المجتمع وبالتالي عزل الدين عن فلسفة التربية والارتقاء في أحضان العولمة الثقافية بدون اعتبار لخصوصية المجتمعات الدينية والثقافية، وتقبل ما يتولد عن ذلك باسم الحرية والتطور من جهة وبين التيارات الفكرية الداعية إلى التمسك بأصول الهوية والانفتاح الموزون على التجارب العالمية غير المتناقضة لمقاصد الخصوصية بما ينتج عنه من رقي حضاري بمختلف أشكاله.

وقد وجدت هذه التدافعات تجلياتها وآثارها حتى في المجتمعات المسلمة.

وتبين ومن خلال دراسات وتحليلات ركزت على مختلف مداخل التأثير في مجال الهوية الحضارية للشعوب الإسلامية أنها أجمعت على خطورتها في مدخل التربية والتعليم مقارنة مع باقي المداخل القيمة المؤطرة لتطورات الأجيال القادمة من توجيه وإفناع وإدخال أفكار غريبة في مجتمعهم.

وفي الحقيقة أن هذا سبب كاف ليولد الأزمة تلو الأزمة في القضاء على القيم المنشودة.

وإذا كانت الأصوات في الغرب قد ارتفعت لتندد بوجود أزمة خلقية تهدد حضارة الإنسان المعاصر والتي تتخذ صوراً مختلفة في كل بلد، فقد تكون حركات تمردية من الشباب على الأعراف والتقاليد وقد تكون انغماس كلي في اللهو والمجون ولا تستبعد المؤسسات التربوية منه، وقد تتمثل في حركات عنف ضد الأموال والأرواح والممتلكات.

وما ساعد على سرعة انتشار هذه الأزمات في جميع القارات سهولة المواصلات والاتصالات، حتى أنه بات من الصعب على أي مجتمع أن يغلق معابره أمام هذه الأزمات الأخلاقية.

والمتمعن في أوضاع العالم كله يستنتج أنه لا غرابة في الأمر إذا تعلقت الأزمة الأخلاقية بالعالم غير الإسلامي لأن الباحث قد يجد المبرر لذلك. فالتربية عندهم وفلسفتها قد افتقدت جوهرتها الأساسية نتيجة سلوكيات بارزة أقرتها المجتمعات الغربية نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

1- استبعاد الدين المسيحي كمصدر أساسي تركز عليه التربية الأخلاقية بدعوى أن التربية المسيحية غير عقلانية وهو ما يتناقض والتربية الدنيوية ذات الطابع العقلاني الذي يتلاءم مع العصر. ومن ثمة فالتوجيهات الدينية تختلف مع طبيعة الإنسان المعاصر.

ويترتب عن هذه الرؤى أن الأنماط التقليدية من القيم وأساليب التربية التقليدية لم يعد بمقدورها مواجهة الأزمات الأخلاقية والاجتماعية التي تعترض الإنسان المعاصر.

2- يلاحظ أيضا أن المسيحية في الغالب لم تعد مصدرا للالتزام الأخلاقي في الغرب المعاصر وهو ما يجعل العقل يبحث عن مصادر جديدة للالتزام الأخلاقي باعتبار أن المجتمعات لا يمكنها أن تعيش فراغا أخلاقيا، فالحياة بدون هذا الالتزام لا تستقيم .

3- ونتيجة الدور السلبي للأخلاق المسيحية وعجز المدارس الفلسفية عن إيجاد البديل تصاعد الوزن النسبي للقيم العصرية التي باتت الوجه المنير للعلاقات المادية للغرب وهكذا تراجعت القيم الإنسانية دركات معتبرة.

4- تدخل علماء التربية وعلم الاجتماع وعلم النفس وحاولوا البحث في أسباب الأزمة الأخلاقية فتوصلوا إلى أن المسؤولية في الأزمة الأخلاقية إنما تتحملها التربية الحديثة التي ركزت اهتمامها على وسائل الحياة وأهملت الغايات والمقاصد واستهدفت المواطن المنتج أكثر من المواطن الصالح المصلح.

وحتى لما اقتنع الغرب بأن يعمل عقله في تحديد الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان الغربي وقع في إشكالية عدم اتفاقهم على تلك الأخلاق ونسبة المتفق عليه في تحقيق المنفعة الأمر الذي جعل القيم الأخلاقية تختلف عندهم من بلد إلى بلد ومن مجتمع إلى آخر وجعل تصور طريقة تدريسها أمرا ليس في متناول الجميع¹⁹ .

وإذا كان المبرر الذي اعتمده الغرب في استبعاده المسيحية كمصدر من مصادر الالتزام الأخلاقي يسر له السقوط في أزمة القيم. فإنه لا يجوز للمربين في العالم الإسلامي أن يقعوا في نفس الخطأ حتى ولو تم بوجه مغاير كاستبدالهم التربية الأخلاقية - وهي العمود الفقري للقيم - بأي مصطلح مغاير أو مستور كالتربية الوطنية أو التربية البيئية أو التربية الجمالية وما أكثر تلك المصطلحات البراقة والتحذير من ذلك لأن الأخلاق الإسلامية متضمنة ومهيمنة على مضامين كل هذه المصطلحات .

فالأخلاق الإسلامية ليست علما نكرة فقد تناولها العلماء بالدراسة عبر مختلف العصور وأبرزوا أصالتها وقدرتها المستمرة على صيانة المجتمعات التي تتحلى بها.

فالواقع أن أزمة القيم لا تجد لها مرتعا خصبا في المنظومة التربوية المعتمدة على فلسفة الأخلاق الإسلامية.

ثالثا: قيم الأخلاق الإسلامية من حيث التأصيل والخصائص

إن قيم الأخلاق الإسلامية لا يمكنها أن تقع في أزمة كما هو شأن القيم المادية وذلك لتميزها بمميزات قلما توجد في غيرها فهي مبنية على أصول شرعية ولها خصائص نوعية.

أ- تأصيل القيم الإسلامية :

وحيث أن القيم هي الترجمة السلوكية للأخلاق الحسنة فالأخلاق إذن تنبؤا مكانة عالية ومنزلة رفيعة حظيت بها من اللطيف الخبير سبحانه وتعالى وجسدها قولا وعملا رسوله المصطفى الذي وصفه ربه بأجمل الأوصاف وأنبأها قيمة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾²⁰.

وبينت رسالة الإسلام الخاتمة أن الشرائع السماوية السابقة أجمعت على فضيلة الأخلاق الحسنة وعلى ضرورة ترسيخها في النفوس وإصلاحها بها وذلك ما يفهم صراحة من قول الرسول ﷺ: ﴿بعثت لأتمم حسن الخلق﴾²¹.

ولقد أجمع علماء الأديان عامة كما يقول الشيخ أبو بكر جابر الجزائري: «على شرف الأخلاق الفاضلة وسموها بالحكمة العلمية وفضلوها على العلم ولم يعتبروا الفرد أو الأمة إلا بالأخلاق الفاضلة»²².

وتتجلى المكانة المرموقة للقيم الأخلاقية في الإسلام من خلال المنزلة التي يحظى بها المتخلق بالفضائل الإسلامية فهو الذي ينال من الأجر الجزيل والثواب العظيم والمكانة السامقة ما لا يناله غيره يقول الرسول ﷺ مبينا ذلك: ﴿إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم﴾²³.

وتستشف الرابطة التأصيلية القوية بين الأخلاق والإيمان من قول النبي ﷺ: ﴿أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا﴾²⁴.

وتظهر أهمية الأخلاق الإسلامية وقيمتها بالاطلاع على ما يجلب بالشعوب والأمم من دمار وفساد إن هي رغبت عن هذه الأخلاق طوعا أو كرها فتتراكم عندها أزمات القيم ويحل بها الهلاك. والتاريخ خير مخبر عن ذلك ومقر له. وانطلاقا من مثل هذه المعطيات الشرعية التي توصل القيم الأخلاقية وضع لها الإمام الغزالي حدا فقال: « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة فيها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورؤية. وإذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وإن كانت تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا»²⁵.

ويرى الإمام ابن القيم الجوزية إن حسن الخلق هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام²⁶.

ب- سمات القيم الإسلامية وخصائصها :

كثيرة هي الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع بالدرس والتحليل، غير أنها تفاوتت في تحديد الخصائص والسمات بين موسع ومضيق، وأهم ما وقع عليه الاتفاق يتمثل في المواصفات الآتية:

1- كون هذه القيم ربانية المصدر:

ولقد تجلّى ذلك من خلال ما ذكرناه عن تأصيلها الشرعي ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما أشار إليه ابن العربي في أحكام القرآن وهو يتحدث عن خلق آدم عليه السلام فقال: « أن الله خلق آدم على صورته يعني على صفاته فإن الله خلقه عالما قادرا مريدا متكلمًا... فليس لله تعالى خلق هو أحسن من الإنسان جمال هيئة وبديع تركيب»²⁷.

ويكفي كذلك أن نعرف أن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه ومع روح الله ومنها انزعت القيم في كيان الإنسان فحب الخير وكره الشر وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾²⁸.

ووضح الرسول ﷺ ذلك بشكل جلي فقال: ﴿ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه﴾²⁹.

فالإنسان مفطور على دين الله وقيمه وحين نزل إلى الأرض واختلط بالبيئة قرب أو بعد من هذه القيم بحسب المؤثرات. فشرع الله له الوسائل والطرق لاكتساب المنفعة والصفاء من الأدران والقرب من القيم الربانية³⁰.

2- كون هذه القيم واقعية :

فالتحلي بالقيم لا يضاد الفطرة ولا يتعب المتلبس بها لأنها قيم تعكس خلاصة سريعة نزلت حسب الوقائع واستجابة مرضية لمشكلات الناس فهي ليست قيم نظرية طوبائية أو وليدة فكر بشري يتبغي المدينة الفاضلة التي لا وجود للشر فيها. وبالتالي فواقعيتها تشمل أهدافها ومراميها .

فالود مثلا قيمة إسلامية عظيمة ولكن تطبيقها يخضع للواقع الحقيقي، فهاهو الرسول ﷺ وهو أكثر الناس تجسيدا للقيم يقول في العدل في الحب بين زوجته ﴿اللهم هذا قسمي في ما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك﴾³¹.

والقيم الإسلامية ورغم كونها مطلقة في أصولها فإن إنزالها على الواقع حكمه التدرج والحسن في محو السيئة واستبدالها بالحسنة كما يقول الرسول ﷺ ﴿واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن﴾³².

وما يؤكد واقعية هذه القيم أيضا أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان بمطلق الكمال في تمثل هذه القيم ولكنه طلب منه الصعود على سلم الكمال على قدر العزم.

3- كون هذه القيم عالمية:

إن الأخلاق الإسلامية لشبيهة بالرحمة الإلهية التي تسع كل شيء فما ثمره هذه الأخلاق الإسلامية للمتحلين بها من سعادة وكمال لا يقتصر عليهم فحسب بل نفعيتها وخيريتها تعم جميع المخلوقات من بني الإنسان وغيره. ومن ثمة فالقيم المستمدة من هذه الأخلاق لا توصف بالسلبية أو تنعت بالفردية.

وإذا كانت الملل والنحل لا تختلف في قيم بعض الأخلاق كالحكم بأن العدل حسن والظلم سيء والكذب مشين والصدق مزين والبخل مكروه والسخاء مطلوب فلأنها قيم عالمية جاءت بها الرسالة العالمية موافقة للفطرة كما تتجلى في نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾³³، وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾³⁴.

غير أن التمسك بهذه القيم لا يكون جزاؤه موحدا .

فمن تمسك بالقيم الإنسانية العالمية خارج إطار الإيمان فتمسكه يفيد في دنياه فقط لأن الجزاء في الآخرة يرتبط بالنية والقصد فمن التزم بهذه القيم راجيا مرضاة الله يجد ثوابه عنده يوم الآخرة ومن تمسك بها إرضاء للضمير وابتغاء لدنياه فلن يبخره ربه حقه في هذه الدار وليس له في الآخرة ثواب مصداقا لقوله تعالى : ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيما ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾³⁵.

4- كون هذه القيم مرنة قابلة للتكيف :

القيم الإسلامية في عمومها قابلة للتجسيد بمختلف الوسائل والطرق فهي تتكيف مع الأحوال والأزمان والأمصار دون أن تتأثر في جوهرها. فالعدل مثلا يتحقق عبر مؤسسات مختلفة وفي مختلف مظاهر الحياة العادية وبالتالي فالتربية الإسلامية ليست في حاجة إلى أن تصنع قوالب منظمة جاهزة تستلزم تطبيق العدل بالمرور فيها وإنما اقتصر على المطالبة بتحقيق جوهر القيمة بمختلف الأشكال التي تستجيب لحاجات الزمن والمكان والأحوال. والأمانة كقيمة إسلامية أمرت الشريعة بأدائها إلى أهلها وبحفظها ولم تحدد وسائل الحفظ.

ومن مظاهر التكيف قدرة القيم على الاستجابة لحالة متلقيها العمرية والنفسية والوجدانية والعقلية فلكل أسلوبه ومنهاجه وطريقه³⁶.

ونخلص من هذا إلى القول بأن قيما تؤسس على مثل هذه المواصفات الكمالية لا يمكن أن تكون إلا قيما إنسانية مهامها الأساسية الإصلاح الاجتماعي وبناء الفرد في نفسه.

فهي بكل ما فيها تدعو إلى الخير العميم وتروم سعادة الناس في الدارين لأصالتها في ربانيتها وتعددتها في إنسانيتها العالمية.

رابعا: النتائج والعلاج

فمن خلال ما وقفنا عليه من تحليل لعلاقات المنظومة التربوية بالقيم الإنسانية تبين لنا وبشكل واضح أن كثرة الأزمت التي تتخبط فيها المنظومات التربوية في العالم كله هي أزمت ارتبطت بالقيم ولم يحسن علاجها مما جعلها تؤدي إلى نتائج سلبية وخيمة وتحدث شروخا عميقة في كيان المجتمع الواحد دفعت الدول إلى القيام ببعض الإصلاحات ووضع برامج وحلول ترقية لم ترق إلى تغيير شيء بل جعلت وضع هذه المجتمعات والدول يزداد تأزما سنة بعد أخرى .

وحيث أن الأمر متعلق بالمنظومة التربوية التي لا يشك أحد في أنها تشكل المحرك الأساسي والقاطرة الأمامية للتنمية المجتمعية الشاملة والمستدامة فقد اقتنع المفكرون والمصلحون بضرورة مراجعة المؤسسات التعليمية دورها في التعليم تكويننا لجيل الغد وترسيخا للقيم الحضارية للمجتمع باعتبار المدرسة مؤسسة اجتماعية تعمل على صيانة المجتمع وذلك بالحفاظ على ثقافته وقيمه كما تعمل في الوقت نفسه من أجل تطويره وتحسينه وذلك عن طريق استيعاب ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية من رقي وتقدم في مختلف المجالات العلمية والتكنولوجية دون أن ترضى بأن يחדش حياءها باسم هذا الرقي³⁷ .

وما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن هناك فرقا بين ممارسة النقد الذاتي بغية إعادة النظر في المنظومة التربوية والتعليم بالاستناد إلى منظومة القيم التي يبتغيها المجتمع وبين أن تتم هذه المعالجة تحت ضغوط سياسية أو اقتصادية تؤدي إلى المساس بالقيم المبتغاة. فيحصل نتيجة ذلك الضغط أن التغيير وقع ولكنه إلى قيم أسوأ .

وقد يقع طالب هذا التغيير في الخطأ ابتداءً إن هو سلك منهج المتسائلين عن كيفية تغيير القيم الإسلامية لأن التغيير يقتضي أن يبحث عن كيفية جعل القيم الإسلامية قيماً للتغيير والبون شاسع بين التصورين³⁸.

ومهما اختلفت النظريات في إبراز العلاقة التي تربط المنظومة التربوية بالمجتمع فإن الأکید في الأمر أن إصلاح المجتمع مرهون بإصلاح المنظومة التربوية وأن نجاح هذه المنظومة في أداء مهامها يستلزم أن تتطابق القيم التي تبثها في الأجيال مع قيم المجتمع وهذا يستلزم كذلك أن ينظر إلى الحضارة والرقى بنظرة واقع المجتمع وجعل هذا الرقى المرغوب منسجماً مع النفس البشرية فلا يعلى جانب منها على آخر .

وعلى العموم فإن الالتزام بالأخلاق الإسلامية يتولد من قوة الإيمان فلا يمكن استبعاده والاستغناء عنه في جميع أشكال التحولات ولو بدت من وجوه الحضارة لأن الأخلاق كما يقول الشيخ محمد الغزالي : « ليست من مواد الترف التي يمكن الاستغناء عنها بل هي أصول الحياة التي يرتضيها الدين ويحترم ذوبها»³⁹.

الخاتمة:

وبعد هذه الومضات التي أثبت فيها بوضوح موضوع القيم وأزماتها في المنظومة التربوية توصلت إلى محصلة مفادها أن المنظرين والمصلحين في حقل التربية لم يراعوا القيم الحقيقية التي يرغب المجتمع في أن يتربى عليها أبنائه، ويظهر ذلك من خلال محتويات البرامج والوسائل البيداغوجية المستعملة على مراحل التعليم ومن خلال الفلسفة المقصودة من التعليم.

ويظهر أيضاً من خلال تدريس معاني الأخلاق والقيم كمواد خاصة أو كوسائل توجيهية تدرج ضمن محتويات البرنامج العلمي المقرر. وأحسن علاج لمنظومتنا التربوية هو إبعادها عن أن تكون محطة تجارب لحلول مستوردة من الخارج وضعها أصحابها للتعبير عن طموحات مجتمعاتهم وقيمتها الخالية بالضرورة من القيم التي أرشدنا إليها ديننا الحنيف.

وإذا كانت أزمة القيم عالمية وأن الغرب حاول مراجعتها بالبحوث والدراسات فإنه لم يحقق المأمول لاعتماده على الروح العلمانية التي تؤمن فقط بالعقلانية والمنفعة ولإبعاده القيم الدينية في الغالب.

فإن هذه الأزمة في العالم الإسلامي نبتت من عدم الالتزام بالقيم الإسلامية الصحيحة بمصادرها الثابتة من قرآن وصحيح سنة وقدوةصالحة عبر العصور.

وهناك فرق بين وجود هذه القيم ضمن البرامج التعليمية وبين الالتزام بها فوجودها بدون التزام كعدم وجودها .

وعليه فإنه من السهل وفي إطار المعالجة أن تصاغ مناهج للتربية الأخلاقية ذات محتوى عصري وتدرس بأساليب بيدغوجية ملائمة.

وسوف ينتج عن ذلك أن قيادة العالم في مجال القيم ستعود للمسلمين كبديل حضاري ويكفي أن نطبق حديث رسول الله ﷺ : ﴿ تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﴾⁴⁰.

الهوامش والتعليقات

- ¹ - تلاميذ الجيل الجديد وأزمة القيم، مولاي مصطفى البرجاوي، منشور في الموقع الإلكتروني http://www.alukah.net/publications_competitions/0/40054، تاريخ الوصول: 2015/12/12
- ² - فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم للدكتور علي خليل مصطفى أبو العينين، مكتبة إبراهيم حلي، الطبعة الثالثة، 1988، المدينة المنورة، ص31.
- ³ - المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1989، لاروس، مادة "ريو".
- ⁴ - فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم للدكتور علي خليل مصطفى ، مرجع سابق، ص32.

- ⁵ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف اسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، 1984، بيروت؛ أساس البلاغة للزمخشري، دار بيروت للطباعة والنشر، 1965؛ المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مادة "أزم".
- ⁶ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، مرجع سابق، 2017/5.
- ⁷ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الفكر للطباعة والنشر، 520/2.
- ⁸ - سورة البينة، الآية 03.
- ⁹ - المعجم العربي الأساسي، مرجع سابق، ص 1017.
- ¹⁰ - مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داودي، الطبعة الرابعة، دار القلم الدار الشامية، 2009، مادة "قوم".
- ¹¹ - سورة التكويد، الآية 28.
- ¹² - تفسير ابن كثير، دار الأندلس، طبعة جديدة مصححة، بيروت، لبنان، 230/7.
- ¹³ - سورة الملك، الآية 22.
- ¹⁴ - تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 74/7.
- ¹⁵ - سورة التين، الآية 04.
- ¹⁶ - تفسير ابن كثير، مرجع سابق، 324/7.
- ¹⁷ - فلسفة التربية الإسلامية للدكتور ماجد عرسان الكيلاني، دار المنارة، جدة، 1987، الطبعة الأولى، ص 992.
- ¹⁸ - المدرسة والمجتمع وأزمة القيم، مقال للباحث محمد أسيداه منشور في الموقع [http://www.aljabriad.net/n81_04asydah.\(1\).htm](http://www.aljabriad.net/n81_04asydah.(1).htm) ، تاريخ الوصول: 2015/12/01.
- ¹⁹ - أزمة القيم في المناهج التربوية على الصعيد العالمي وانعكاساتها على التربية في العالم الإسلامي، دراسة مقدمة إلى الندوة الدولية في موضوع القيم الإسلامية، مناهج التربية والتعليم - تطوان المغرب 21 إلى 23 نوفمبر 2005، إعداد الدكتور عبد الرحمن عبد النقيب، جامعة المنصورة، جمهورية مصر العربية، منشور في الموقع: <http://www.riyadhalelm.com/play-11296.html> ، تاريخ الوصول: 2015/11/15.

- 20 - سورة القلم، الآية 04.
- 21 - رواه الإمام مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق.
- 22 - رسائل الجزائري، أبوبكر جابر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة 01، 1988، ص 511.
- 23 - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب في حسن الخلق، الجزء الثاني، ص 604.
- 24 - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، المجلد الخامس، حديث رقم 7397.
- 25 - إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، 1982، الجزء الثالث، ص 53.
- 26 - مدارج السالكين لابن القيم، 319/02.
- 27 - أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن العربي، طبعة منقحة، توزيع شركة القدس للتصدير، القاهرة، 375/4.
- 28 - سورة السجدة، الآية 09.
- 29 - أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، حديث رقم 1359، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه.
- 30 - مستقبل التربية على القيم في ظل التحولات العالمية المعاصرة، الدكتور خالد الصمد، منشر في الموقع: http://www.almostshar.com/web/subject_desc.php?subject_Id=803cat_subject_Id=36cat_Id=3، تاريخ الوصول: 2015/12/12.
- 31 - رواه أبو داود في كتاب النكاح باب القسمة بين النساء؛ والترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر.
- 32 - رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس.
- 33 - سورة سبأ، الآية 28.
- 34 - سورة الأنبياء، الآية 107.
- 35 - سورة الإسراء، الآيتين 18، 19.
- 36 - مستقبل التربية على القيم في ظل التحولات العالمية المعاصرة، مرجع سابق، ص 18.
- 37 - السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، الدكتور لحسن مادي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص 811.

- 38 - مستقبل التربية على القيم في ظل التحولات العالمية المعاصرة، مرجع سابق، ص 05.
- 39 - خلق المسلم، محمد الغزالي، شركة الشهاب، الجزائر، ص 13.
- 40 - انفرد به الإمام مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر.